بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء الثانى عشر

سورة هود

من الآية ٦ حتى نهايتها الآية ١٢٣

وسورة يوسف

من بدايتها حتى الآية ٥٢

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) ﴾

تكفل الله برزق كل ما على الأرض من دابة، ولم يجعله فى يد مخلوق، وهذا بيان إلهى يسمو به الناس عندما يوقنون بأن رزقهم على الله وحده، وما عليهم إلا أن يأخذوا بالأسباب كما بينت لهم الشريعة، وإذا كان الله تكفل برزق الماشية، وما إليها من دواب، فكيف برزق من جعله خليفة، ومن كرمَّه وحمله فى البر والبحر، ورزقه من الطيبات، وفضله على كثير من خلقه تفضيلاً؟ ﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا ﴾ يعلم مكانها فى الأصلاب أو فى الأرحام أو على الأرض فى حياتها ومماتها ﴿ وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ موضع استيداعها فى الأصلاب أو الأرحام أو فى القبور حتى يوم البعث، وقيل غير ذلك، والمقصود يعلم منشأها ومنتهاها، وذلك يشمل كل المعانى السابقة ﴿ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ وهو اللوح المحفوظ ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ لم يبين القرآن ولا السنة الصحيحة المقصود بالستة أيام، ولا عرشه على الماء، فهى من أمور الغيب التى لا ندركها بإعمال النظر والتفكر، وتفيد الآية أن خلق الإنسان هو ابتلاء لعمله فى الدنيا، يجازيه الله به فى الآخرة، فإن قال الرسول (ﷺ) ذلك للناس، رفضه الكافرون، وتحججوا بأن القرآن سحر يصيب العقول والنفوس.

***

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٨) ﴾

يتحدى الكفار الرسول (ﷺ)، والقرآن عندما ينذرهم بعذاب الله، يقولون أين هو هذا العذاب؟ ما الذى يحبسه؟ ـ بل بلغ بهم العناد والتكبر والسخرية والاستهزاء أن قالوا ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

[الأنفال : ٣٢] بدلاً من أن يقولوا إن كان حقّا فاهدنا إليه ـ فأخبرهم يا محمد أنه عندما يأتيهم عذاب الله فلن يجدوا من يصرفه عنهم، وسيحيط بهم استهزاؤهم بذلك العذاب.

* * *

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١) ﴾

أكثر الناس إذا أصابته بعض النعم، كالصحة والمال والأولاد، رحمة من الله، تملكه الفرح ونسى أن الدنيا دار بلاء وامتحان وأن دوام الحال من المحال، فإذا ما نزع الله هذه النعم أو بعضها، تحول فرحه إلى يأس وكفر، فإذا ما عاد الحال إلى النعم والرخاء، إذا به يفرح فرح الاستغناء والتكبر ـ كما جاء في الآية ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ(٧) ﴾ [العلق]؛ لذلك يربى القرآن المؤمنين قائلاً ﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد : ٢٣]، وهم بهذا استثناء من ناس اليأس والكفر، وناس الفرح وتفاخر الاختيال ـ ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾.

* * *

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٤) ﴾

تبين الآية حجم الضيق الذى لاقاه الرسول (ﷺ) من قومه وهو يدعوهم لما فيه هداهم، فيشد الله أزره، ويثبته فيما يظهر أنه سؤال، ولكنه في واقع الحال يعنى النفى والاستبعاد: هل أنت تارك بعض الوحى من ضيق صدرك؟ أنت يا محمد نذير، تبلغ رسالة الله، وما طلبهم الكنز أو الملك إلا جحود وعناد، والله هو الموكول إليه هداية البشر وطرق إبلاغهم دينه، فإن تمادوا في رفضهم، وأصروا على أن القرآن افتراء منك، فتحداهم قائلاً: ﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ واستعينوا بمن تستطيعون في ذلك ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فإن عجزتم، فاعلموا أن هذا القرآن نزل من عند الله، فلا يمكن لأحد أن يأتى بمثله ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾.

* * *

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦) ﴾ .

من تكون الدنيا همَّهُ الأول والأخير، فسينال نصيبه منها بقدر عمله دون نقصان، ولكن أولئك الذين تناسوا أن الإنسان خُلقَ لخلافة الله وكُلف بأمانة أشفقت منها السموات والأرض والجبال، هؤلاء مصيرهم إلى النار، وكل ما قدموه فى الدنيا باطل، وسيحبط عملهم فى الآخرة. وفى خطبة لرسول الله (ﷺ) فى منى قال ضمن ما قال: «. . . . ومن كان همّه الآخرة جمع الله شملَهُ، وجعل غناهُ فى قلبه، وأتتهُ الدنيا وهى راغمة، ومن كان همّه الدنيا فرق الله أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتبَ له» رواه ابن ماجه، كذلك جاء فى الدعاء: «اللهم لا تجعل الدنيا مبلغ علمى ولا أكبرهمى» .

❊❊❊

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (١٧) ﴾

تعدد أقوال المفسرين فى هذه الآية، ولعل أقرب ما يطمئن له العقل والقلب هو ما قاله سيد قطب: [وردت روايات شتى فيما هو المقصود بقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ . . وفى قوله تعالى: ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾. وفى عائد هذه الضمائر فى: «ربه» وفى «يتلوه» وفى «منه» . . وأرجحها ـ كما يبدو لى ـ هو أن المقصود بقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ هو رسول الله (ﷺ) وبالتبعية له كل من يؤمن بما جاء به ـ وأن المقصود بقوله تعالى: ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ أى ويتبعه شاهد من ربه على نبوته ورسالته. وهو هذا القرآن الذى يشهد بذاته أنه وحى من الله لا يقدر عليه بشر. «ومن قلبه» ـ أى من قبل هذا الشاهد وهو القرآن؛ «كتاب موسى» يشهد كذلك بصدق النبى (ﷺ) سواء بما تضمنه من البشارة به؛ أو بموافقة أصله لما جاء به محمد من بعده.

ويكون المعنى الكلى للآية: أفهذا النبى الذى تتضافر الأدلة والشواهد على صدقه وصحة إيمانه ويقينه. . حيث يجد فى نفسه بينة واضحة مستيقنة من ربه. وحيث يتبعه ـ أو يتبع يقينه هذا ـ شاهد من ربه هو هذا القرآن الدال بخصائصه على مصدره الربانى. وحيث يقوم على تصديقه شاهد آخر قبله، هو كتاب موسى الذى جاء إمامًا لقيادة بنى إسرائيل ورحمة من الله

تنزلت عليهم. وهو يصدق رسول الله (ﷺ) بما تضمنه من التبشير به، كما يصدقه بما فيه من مطابقة للأصول الاعتقادية التى يقوم عليها دين الله كله.

يقول: أفمن كان هذا شأنه يكون موضعًا للتكذيب والكفر والعناد كما تفعل الأحزاب التى تناوئه من شتى فئات المشركين؟ إنه لأمر مستنكر إذن فى مواجهة هذه الشواهد المتضافرة من شتى الجهات.

ثم يعرض مواقف الذين يؤمنون بهذا القرآن والذين يكفرون به من الأحزاب، وما ينتظر هؤلاء من جزاء فى الآخرة. ويعرج على تثبيت الرسول (ﷺ) والذين يؤمنون بما معه من الحق؛ فلا يقلقهم شأن المكذبين الكافرين، وهم كثرة الناس فى ذلك الحين:

«أولئك يؤمنون به، ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده، فلا تك فى مرية منه، إنه الحق من ربك، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون»].

* * *

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) ﴾

ليس هناك من هو أكثر ظلمًا لنفسه وبُعْدًا عن الحق ممن يختلقون كذبًا ثم ينسبونه إلى الله سواء بنسبة الشركاء له، أو باعترافهم له بخلقهم فقط، ثم لا يترتب على ذلك الخلق العمل بمنهجه، وكأنه خلقهم عبثًا، وهم إليه لا يرجعون، أولئك الذى يصدون الناس فى الدنيا عن سبيل الله، بمختلف الحجج والتبريرات، ولذلك سيشهد عليهم الشهداء يوم الحساب، ويقولون إنهم كذبوا على ربهم لما أرادوا إخراجه من حياتهم، كفرًا به، وعليهم لعنة الله بظلمهم.

* * *

﴿ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٢٢) ﴾

أولئك الذين افتروا على الله الكذب، وصدوا عن سبيله ﴿ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ ﴾ ليسوا فائتين من عذاب الله بالهرب ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ يمنعونهم من عقاب

الله، بل سيضاعف لهم العذاب فى الآخرة ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ بقدر ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا ويبصروا الحق فى الدنيا، ولكنهم تكبروا وجحدوا وعاندوا فخسروا أنفسهم حين لم ينتفعوا بما ساقه الله إليهم من آيات ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ وضاع منهم ما يفترونه من أباطيل ﴿لا جَرَمَ﴾ حقّا إن مصيرهم النار؛ حيث ﴿هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾.

***

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَىٰ وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٢٤)﴾

أما الذين آمنوا، وصدقوا إيمانهم بالعمل الصالح ﴿وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ اطمأنت قلوبهم لربهم وخشعوا فى عبادته، فإنهم أهل الجنة وأصحابها الخالدون فيها ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ الفريق الكافر والفريق المؤمن، كالأعمى والأصم، وكالبصير والسميع ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾ استفهام استنكارى ﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾.

***

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧)﴾

يروى رب العالمين لرسوله الكريم من قصص رسله إلى أقوامهم ما يُثَبِّت به فؤاده ويطمئنه، فها هو نوح (عليه السلام) الذى أرسله الله فى قومه فلبث فيهم عمرًا طويلاً ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً﴾ يقول ويكرر لهم إنه بُعِثَ لينذرهم عذاب الله إن هم جحدوا الحق، ويبشرهم بالجنه ونعيمها إن آمنوا وعملوا الصالحات. وقال ككل رسول يحب قومه ويشفق عليهم: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ فما كان جواب قومه الذين كفروا إلا أن قالوا باستخفاف واستهزاء ﴿مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ ما أنت إلا بشر مثلنا، لم يتبعك إلا ضعفاؤنا ناقصو النفوذ والجاه والمال ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ قال بعض المفسرين: اتبعوك بغير روية ولا تأمل بمجرد أن دعوتهم، وقال آخرون: هذا رأينا الظاهر. ثم إننا لا نرى أى ميزة تفضلك ومن معك علينا، بل نعتقد أنك كاذب ومن معك كاذبون.

***

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) ﴾

قال نوح (ﷺ) لقومه الرافضين لدعوته المعرضين عنها ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أخبرونى إن كان ربى قد شرح صدرى بالإيمان ﴿ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ ﴾ تعددت أقوال المفسرين فى تلك الرحمة، من الإيمان إلى الحكمة والتكليف بإبلاغ الرسالة، وقد تكون الحياة المستقيمة فى العبادات والمعاملات ورحمته بالفقراء والبسطاء من قومه، وقد يكون كل ما سبق ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ أعماها عليكم اغتراركم بالجاه والمال ومتع الدنيا ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ فهل نجبركم على هذه الرحمة بالإكراه؟ وأنا لم أسألكم على دعوتى أجرًا لأن أجرى على الله، ولن أطرد المؤمنين البسطاء الذين تحتقرونهم ﴿ إِنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ ﴾ فسيلقون ربهم يوم القيامة، ويخبرونه بما فعلت بهم، أو أنهم يأتون عندى ليتقربوا إلى ربهم بالاستماع لرسالته ﴿ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ الجهل يعنى عدم العلم، ويعنى أيضًا الاعتداء على حقوق الناس، وكثيرًا ما يترتب المعنى الثانى على المعنى الأول، فهم يريدون من نوح (ﷺ) أن يطرد من مجلسه المؤمنين البسطاء، ولذلك أجابهم رافضًا ﴿ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

***

﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١) ﴾

يوضح نوح (ﷺ) لقومه رسالته، وينفى عن نفسه ما يريدونه منه أو فيه، فليس له سلطان على خزائن الله ينفق منها على من يشاء، ولا يَدَّعى معرفة الغيب، وهو بشر، ولا يقول عن فقراء المؤمنين الذين يستصغرونهم لن يؤتيهم الله من خير الدنيا والآخرة؛ لأن الله هو الخبير بما فى نفوسهم ونواياهم، وإن قال ما يطلبه أولئك الظالمون، لأصبح مثلهم من الظالمين.

***

﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن

﴿ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) ﴾

قال قوم نوح (ﷺ) مثلما قال كثير من المتكبرين الجاحدين على مر العصور: لقد أطلت الجدال، فأتنا بالعذاب الذى تحذرنا منه إن كنت من الصادقين ـ وبعد نوح (ﷺ) بأكثر من ألفى سنة، قالت قريش قولاً مشابهًا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ـ فأجابهم نوح (ﷺ): أن ذلك بيد الله، وما أنتم بفالتين من عقوبته إن عاجلاً أو آجلاً، ولن ينفعكم نصحى إن كان الله علم بجحودكم وأراد غوايتكم عن الحق[1]، فهو خالقكم وإليه ترجعون ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ هذا قول رب العزة، فهم هنا يُصعِّدون رفضهم وجحودهم فيقولون بافتراء نوح وحى الله له، وأمر الله رسوله أن يجيبهم قائلاً: إن افتريت الوحى، فعلى جرم ذلك، وأنا برىء من جرمكم برفض دعوتى لهداكم.

***

﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩) ﴾.

بعد كل هذه السنين الطوال فى الدعوة، أوحى الله إلى رسوله أن الأمر انتهى، فلا تغتم ولا تحزن بكفرهم؛ لأنى أعلم أن قلوبهم صدأت فلن يؤمن بك أحد منهم إلا القليل الذين آمنوا، ولكن اصنع فُلْكًا كبيرًا ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ بحفظنا ورعايتنا ﴿ وَوَحْيِنَا ﴾ وإلهامنا وتعليمنا لك، ولا يرق قلبك فتسألنى أن أمهل الظالمين؛ لأنى قد حكَمت بغرقهم فى الطوفان. وأخذ نوح فى بناء الفُلْك وسط سخرية وجهائهم وأغنيائهم، فقال لهم نوح: إن كنتم تسخرون منا الآن، فغدًا نسخر منكم كما تسخرون منا، وستعلمون عندئذ مَنْ منا سيأتيه الله بعذاب يخزيه فى الدنيا، ثم بعذاب الآخرة الدائم.

***

(١) انظر، على سبيل المثال، آية سورة الأعراف ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ [١٤٦].

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (٤٠) وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) ﴾

حتى إذا صدر الأمر الإلهى بإهلاك قوم نوح، اندفعت المياه من التنور، ولم يبين القرآن ما هو التنور، وليس هناك حديث صحيح عنه؛ لذلك تعددت أقوال المفسرين، وجمعها الشوكانى فى ثمانية أقوال أرجحها: وجه الأرض ـ فرن الخبز ـ طلوع الفجر، وبدأ منسوب المياه فى الارتفاع، فقال تعالى لرسوله: اركب السفينة، واحمل من كل المخلوقات ﴿ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ ذكرًا وأنثى، واحمل أهلك من المؤمنين ﴿ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ الذى صدر الحكم الإلهى بإغراقه ومنهم أحد أبنائه، وكان الذين آمنوا بنوح (ﷺ) قليلى العدد. وقال نوح للمؤمنين اركبوا فى السفينة، باسم الله تجرى وباسمه ترسو ﴿ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ثم راحت السفينة تعلو وتهبط مع الموج العالى كالجبال، والتفت نوح ولم يجد ابنه مع المؤمنين، ولكنه كان ﴿ فِي مَعْزِلٍ ﴾ عنهم وعن رسالة أبيه، فقال له بلهفة الأب: ﴿ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴾ فكان رد الابن الجاحد العاصى ﴿ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴾ صرخ فيه أبوه قائلاً: ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ ﴾ وفرق الموج بين نوح (ﷺ) وابنه ﴿ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾.

* * *

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤) وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧) ﴾

وصدر الأمر الإلهى للأرض ﴿ وَغِيضَ الْمَاءُ ﴾ نقص الماء بابتلاع الأرض له، وللسماء بالتوقف عن إنزاله، وتم حكم الله على المكذبين، ورست السفينة على جبل اسمه الجودى، قيل إنه فى شمال العراق، وقيل فى تركيا، وقيل غير ذلك، وقال صوت الحق: هلاكًا وبعدًا

للقوم الذين ظلموا أنفسهم، واتجه نوح (عليه السلام) بقلبه إلى الله ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ فأجابه تعالى: ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ إنه عمل غير صالح بكفره ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ لا تسألني عما لا تعرف ولا تكن من الجاهلين، فخشع نوح لأمر ربه ورضى بحكمه قائلاً: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ لقد تُبتُ وأنبتُ وإن لم تغفر لي جهلي أصبح من الخاسرين.

***

﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨) تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩)﴾

يسر الله ـ تعالى ـ لرسوله نوح (عليه السلام) ومن معه من المؤمنين وأمم الحيوانات أن يهبطوا إلى الأرض بالسلام والبركات ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ وهي أممٌ ستأتي بعد نوح؛ بعضهم سينال البركة وحسنات الدنيا نتيجةً لإيمانهم وعملهم الصالحات، ومنهم أممٌ أخرى سيكون كل همهم الاستمتاع بالدنيا غافلين عن السبب الأول لخلقهم وهو خلافة الله وحمل الأمانة وعمارة الأرض بالحق وبفعل الصالحات، هؤلاء الغافلون سيصيبهم عذابٌ أليم ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد حتى يعرف قومك أن منزل القرآن هو عالم الغيب والشهادة، وحتى لا تحزن بإعراض المعرضين وكيد الكائدين، فاصبر لأن العاقبة للمتقين.

***

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢)﴾

قال هود (عليه السلام) لقومه عاد كما قال كل الرسل لأقوامهم: اعبدوا الله وحده، لا أريد منكم أجرًا، فأجري على الله الذي خلقني، ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه، تسقط عليكم السماء مطرًا غزيرًا متتابعًا، تحيا به مزارعكم، ويزيد من قوتكم، ولا تجرموا في حق أنفسكم بالتولي عن الله.

***

﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) ﴾

قالت عاد لرسولهم: يا هود ما أتيتنا بحجة وبرهان حتى نؤمن لقولك ونترك آلهتنا، ولا نقول إلا أنه قد أصابك من بعض الآلهة التي تكفر بها سوءٌ وضرر، قال هود (ﷺ): أشهد الله، وأشهدكم أني بريء مما تشركون، فإن كان لآلهتكم ولكم قدرة على إيذائي، فافعلوا ﴿ ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ لا تؤجلوا إيذائي، فقد توكلت على الله ربي وربكم، الذي بيده أمر كل دابة، ولن يكرمني الله بإبلاغ رسالته إليكم، ثم يتخلى عني، فمنهجه الرباني صراط الحق والعدل المستقيم.

* * *

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠) ﴾

فإن توليتم بعد ما أبلغتكم رسالة ربي، فإن الله قادر على أن يأتي بقوم غيركم ولا يكونوا أمثالكم في الكفر، وكفركم لا يضر الله في شيء، بل يعود عليكم ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ لا تخفى عليه أعمالكم ولا يغفل عن مجازاتكم. ثم صدر الأمر الإلهي بإهلاك عاد، ونجى الله رسوله هودًا (ﷺ) والذين آمنوا معه برحمته ﴿ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ هو عذاب الإهلاك في الدنيا، وعذاب النار في الآخرة. هذه هي قصة عاد، التي لم يُخلق مثلها في البلاد، ولكنها بدل أن تؤمن وتشكر وتحمد، جحدت آيات ربها وخالفت رسولها، وجاء التعبير القرآني ﴿ وَعَصَوْا رُسُلَهُ ﴾ فمن عصى رسوله ورفضه، فقد رفض سنة أن يرسل الله الرسل، وهو بهذا عصى ورفض كل رسل الله، وبدلاً من أن تطيع عاد رسل الله؛ أطاعت ﴿ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ من الرؤساء والوجهاء الجبابرة المعاندين، فلحقتهم لعنة ربهم في الدنيا، وفي الآخرة بالنار الحامية، ألا فهلاكًا لعاد قوم هود.

* * *

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١) قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) ﴾

ثم أرسل الله إلى ثمود التى كانت تسكن الحجرْ شمال الحجاز أخاهم صالحًا (ﷺ) ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ هو الذى خلقكم من تراب الأرض، ثم جعلكم خلفاء فى الأرض لتعمروها، فادعوا الله أن يغفر لكم ذنوبكم، وارجعوا إليه تائبين ﴿ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ لمن سأله، فما كان جواب قومه إلا أن قالوا: ﴿ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ﴾ كنت قبل دعوتنا إلى التوحيد فى موضع عال، نرجو لقاءك ورضاءك علينا، ما الذى أصابك؟ ﴿ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ أنترك ما ألفناه واعتدنا عليه مما عبده الآباء والأجداد؟! إننا نشك فى دعوتك هذه.

* * *

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣) وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) ﴾

قال صالح (ﷺ) لقومه: خبرونى إن كنت على بصيرة وبرهان من ربى، وآتانى حكمة ونبوة وكلفنى بإبلاغكم رسالة، فكيف لا أفعل؟ ومن ينصرنى من ربى إذا عصيته حتى أرضيكم؟ فتعنتوا ـ ككل الجاحدين ـ فى قبول رسولهم، وتحججوا بطلب معجزة حتى يؤمنوا، فأرسل الله لهم ناقة، طلب منهم صالح (ﷺ) أن يتركوها تأكل من رزق الله فى الأرض ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴾ كى لا تتعرضوا لانتقام الله ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ فنحروها، وأصل العقر هو قطع عرقوب البعير قبل نحره، فقال لهم رسولهم: عيشوا وانعموا بالحياة فى بيوتكم ثلاثة أيام فقط، ثم يأتيكم أمر الله.

* * *

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ (٦٨) ﴾

ولما جاء أمر الله نجى الله رسوله صالحًا (ﷺ) والذين آمنوا ﴿مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ وهل هناك أخزى من أن يموت قوم بسبب غضب ربهم عليهم؟ إن ربك يا محمد ﴿هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ فاطمئن إلى جنابه المتين، وصعقت الصيحة ثمود بسبب ظلمهم فزلزلتهم وأرجفت قلوبهم، فأصبحوا في ديارهم جثثًا هامدة، وكأنهم لم يفعلوا بحياتهم ما ينفع ويفيد، بل كفروا بربهم ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾.

* * *

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠)﴾

أرسل الله إلى إبراهيم (ﷺ) رسله من الملائكة في صورة بشر، فحيوه بالسلام فرد عليهم السلام وأمر لهم بالعَشَاء وأحضر، عجلاً مشويّا على الحجارة، ودعاهم للطعام، ولاحظ إبراهيم (ﷺ) أنهم لم يمدوا أيديهم للطعام، فأنكر أنهم ضيوف عاديون وأحس بالخوف؛ فلما رأوا الخوف في وجهه قالوا: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾.

* * *

﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣)﴾

وكانت سارة زوجة إبراهيم تقف معهم ﴿فَضَحِكَتْ﴾ ربما بزوال خوف إبراهيم (ﷺ)، وربما استبشارًا بهلاك قوم لوط فقد طغوا وأفسدوا، وربما لغير ذلك، فبشرتها الرسل بأنها ستلد إسحاق ويلد إسحاق يعقوب ـ صلى الله وسلم عليهم أجمعين ـ فتعجبت، كيف ألد بعد هذا العمر الطويل، وزوجي شيخ كبير؟ فأجابت الرسل: لا تعجبي من قدرة الله، أسبغ عليكم رحمته وبركته أهل بيت الرسالة، وجدير بالبشر أن يحمدوا الله ويمجدوه على فضله وكرمه وإحسانه.

* * *

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦)﴾

فلما ذهب عن إبراهيم (ﷺ) الخوف وهدأ، ثم سمع البشارة بالولد والحفيد، أخذته الشفقة ورق قلبه لعذاب قوم لوط (ﷺ)، وراح يناجى ربه ويستعطفه، ويمتدح الله فى إبراهيم حلمه وأنه ﴿أَوَّاهٌ﴾ كثير التأوه من أحوال الدنيا والعباد، أو كثير التأوه شفقة وخوفًا من الله، وقيل كثير الدعاء، وارجع لشرح الآية ١١٤ من سورة التوبة ﴿مُنِيبٌ﴾ كثير الرجوع إلى ربه بالعبادة والحمد والشكر والمناجاة والاستغفار، فقالت الرسل: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ لا تجادل فى قوم لوط؛ لأن أمر الله واقع وأن عذابه نازلٌ بهم.

***

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠)﴾

وعندما ذهبت الرسل إلى بيت لوط (ﷺ) استاء؛ لأنه يعلم فعل قومه، فضاق بهم لأنه لا يضمن حمايتهم ولا يقوى على ردع قومه، فقال هذا يوم صعب شديد. وعندما عرف قومه مجىء هؤلاء الغرباء الحسان جاءوا مسرعين ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ كانوا يرتكبون فاحشة الشذوذ، فقال لهم نبيهم لوط متوسلاً: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ تزوجوهن فهن ﴿أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ وخافوا الله ولا تفضحونى أمام ضيوفى، ألا يوجد منكم رجل رشيد ينهاكم عن فعلكم؟ قالوا بمنتهى التبجح والفجور: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ ليس لنا حاجة من الإناث، وإنك تعلم جيدًا أننا نريد الذكور! وكأنهم من فجورهم اعتبروا إتيان الذكور حقّا. خاف لوط الخزى والعار وتمنى ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ فأدفعكم عنهم قهرًا، أو ألجأ إلى مكان يمنعنى وضيوفى منكم.

***

﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣)﴾

ولما رأت الرسل حال لوط (ﷺ) قالت له مطمئنة: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ فهم لن يصلوا إلينا ولا إليك، سر أنت وأهل بيتك فى الليل واخرج بهم من هذه القرية الظالم أهلها، ولا يلتفت منكم أحد لكى لا يرى أهوال العذاب، إلا زوجتك التى خانتك وشجعت قومك عليك فلا تدعها للخروج معك ﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ من العذاب، وإن العذاب لنازل فى الصباح، وهو موعد قريب. ثم جاء أمر الله ـ تعالى ـ بجعل ﴿عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ فانقلبت القرية رأسًا على عقب، ونزل عليهم مطر ﴿مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ من حجارة من طين صلب، متتابع، وهى ﴿مُسَوَّمَةً﴾ معلمة خاصة بالظالمين ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ وليحذر كل من يظلم ويخالف أمر الله أن يكون عذابه من هذا القبيل، أو نظيره، فهو ليس بعيدًا عن الظالمين.

* * *

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (٨٦)﴾

أرسل الله ـ تعالى ـ بعد ذلك رسوله شعيبًا (ﷺ) إلى أهل مدين، ودعاهم ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ ثم قال: ﴿وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ حين تبيعون لغيركم، أى لا تغشوا فى الميزان، وفى الحديث «من غشنا فليس منا» رواه مسلم، إن الله قد أنعم عليكم بالنعم والخير الوفير، وأخاف عليكم لو عصيتموه ﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ محيط بكم لا فرار منه، ثم ناشدهم ﴿أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ والأمر هنا أعم من البيع والشراء، فكل تعاملاتكم مع الناس يجب أن تقوم على العدل ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ ولا تنقصوا الناس شيئًا من كافة حقوقهم، ثم ختم نصحه بقوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ قرنت الآية بين بخس الناس حقوقهم والإفساد فى الأرض ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ما يبقى لكم من الحلال خير مما تجمعونه من الحرام ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

* * *

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا

﴿أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨)﴾

قالوا لشعيب مستنكرين: أصلواتك تُبين لك أن علينا أن نترك عبادة آبائنا، وأن نترك طرقنا فى الكسب والبيع والشراء؟! ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ إنك أحلم وأرشد من أن تأمرنا بهذا، فأجابهم شعيب (ﷺ): يا قومى.. يا أهلى، أخبرونى، إن كنت ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ على برهان من ربى ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ رزقًا طيبًا حلالاً، مع أنى أوفى المكيال والميزان، ولا أبخس الناس حقوقهم، أو هدانى للإيمان وكلفنى بإبلاغكم رسالته، ويمكن الجمع بين كل ما سبق، وجواب الشرط المحذوف تقديره هل كنت أترك إبلاغكم الرسالة؟ وأنا لا أريد مخالفتكم لمجرد المخالفة، ولكن أريد اصلاحكم والله هو الموفق ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ عليه التكلان، وإليه أرجع فى السراء والضراء.

***

﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠)﴾

يا قوم لا تجعلوا شقاقكم معى وتكبركم وجحودكم يؤدى إلى هلاككم كما هلك قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح، وليس قوم لوط ﴿مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ لا فى العصيان، ولا فى الزمان والمكان، فاتعظوا واخشوا ربكم واستغفروه، وسارعوا إلى التوبة الخالصة النصوح؛ لتتعرضوا لرحمات ربكم ووده.

***

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣)﴾

قالوا يا شعيب ما نفهم كثيرًا من قولك، ونراك ضعيفًا، ولولا عشيرتك لرجمناك بالحجارة حتى نتخلص منك، فأنت علينا هين قليل القيمة، قال شعيب (ﷺ) متألمًا: هل عشيرتى أعز عليكم من رب العالمين الذى نبذتموه وراء ظهوركم وعبدتم من دونه آلهتكم التى

لا تنفع ولا تضر، وعلمه محيط بكل ما تعملون؟! ولما يئس منهم قال لهم منذرًا: اعملوا ما شئتم لترتفعوا فى الأرض، أما أنا فسأعمل لوجه الله وأدعو إليه ولن أبالى بتهديداتكم، وستعلموا من الذى يأتيه خزى الله وانتقامه، ومن منا كاذب فى دعواه، وترقبوا أمر الله وأنا معكم مترقب.

* * *

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥) ﴾

ولما جاء أمرُ الله بهلاك قوم شعيب، نجى الله ﴿ شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ برحمته، أما الظالمون فأصابتهم ﴿ الصَّيْحَةُ ﴾ جاء فى سورة الأعراف أن مدين قوم شعيب، أخذتهم الرجفة [الآية: ٩١]، وهنا أخذتهم الصيحة، وقال الشوكانى: [الرجفة الزلزلة، وأنها تكون تابعة للصيحة لتموّج الهواء المفضى إليها] فيبدو أن ذلك العذاب كان صيحة هائلة جعلت الهواء يتذبذب ذبذبات عالية جدًا، فى موجات ضغط جعلتهم يرتجفون ويتزلزلون إلى الموت، وربما كانت الصيحة إيذانًا بالاستئصال، والله أعلم ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ فأصبحوا باركين على ركبهم، منكبين على وجوههم جاثمين هامدين، وكأن حضارتهم لم تكن ولم تفعل شيئًا ينفع ويفيد ويغنيهم عما أحل بهم ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ ألا هلاكًا لمدين ولعنة عليها، مثلها مثل ثمود.

* * *

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩) ﴾

ثم بعث الله موسى (ﷺ) إلى فرعون وبطانته، وقدَّم لهم الحجج والمعجزات المبينة، فكفر به فرعون وتبعه قومه فى الكفر ﴿ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ فسيقود من قومه الظالمين الجاحدين إلى الجحيم ﴿ بِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾ بئس الماء الذى يأتون إليه ليشربوا منه، فهو من حميم جهنم، فبئس المدخل الذى يدخلون فيه، وهم فى هذه الدنيا ملعونون ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾ بئس العطاء المعطى لهم.

* * *

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) ﴾

هذه القصص التى نحكيها لك يا محمد عن القرى الظالم أهلها، منها ما زال أثره قائمًا، ومنها ما اندثر كالزرع المحصود، وما نزل بهم ليس ظلمًا من الله، ولكنهم ﴿ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ حين أصروا على التكبر والجحود ﴿ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ ﴾ فما نفعتهم آلهتهم ـ سواء كانت بشرًا أو ملائكة أو أوثانًا وأصنامًا، أو غيرها من زينة الحياة الدنيا وشهواتها ونزواتها ومتعها الزائفة الزائلة ـ حين وقع أمر الله، بل لقد زادتهم خسرانًا على خسران، وربما كان ذلك بإنكار تلك الآلهة المزعومة لعبادتهم لها فى الآخرة، أو تأكيدها أنها تعبد الله، فكيف يعبدها أولئك الخاسرون؟ والله أعلم. وهكذا الله إذ تفضل على القرى بإرسال الرسل والأنبياء، فأصرت على الجحود ﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾.

***

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) ﴾

إن ذكر هذه القصص لعبرة وعظة لمن يعمل حسابًا للقاء الله فى يوم الحشر، وهو الحدث الجدير بالمشاهدة والذكر، ففيه يضع مالك الملك الموازين الحق، ويلقى كل البشر جزاء أعمالهم، لا يظلمون ولا يُظلمون، ومن ذلك اليوم تبدأ الحياة الحقة. ذلك اليوم مؤخرٌ لأجل محدود، تُلجمُ فيه الألسنة، ولا يملك مخلوق أن ينطق إلا بإذن الله تعالى، منهم من هو شقى بأفعاله، ومنهم من هو سعيد مستبشر بأفعاله ونواياه.

***

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨) ﴾

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا ﴾ فمصيرهم إلى جهنم ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ كناية عن الهم والغم والكرب العظيم، وقيل لا يملكون فيها لأنفسهم إلا الزفير والشهيق إن كانوا يملكونه، وسيخلدون فيها ﴿ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾

تعددت أقوال المفسرين فى هذا الاستثناء، فقال الطبرى: [أولى الأقوال بالصواب، القول الذى ذكرنا عن قتادة، والضحاك: من أن ذلك استثناء فى أهل التوحيد من أهل الكبائر، أنه يدخلهم النار خالدين فيها أبدًا، إلا ما شاء من تركهم فيها أقل من ذلك، ثم يخرجهم فيدخلهم الجنة]، وذكر الماتريدى عدة أقوال، منها: [قال بعضهم: إن ناسًا من أهل التوحيد يعذبون فى النار على قدر ذنوبهم وخطاياهم، ثم يخرجون منها، وقد روى فى ذلك آثار، روى عن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة ـ رضى الله عنهما ـ عن النبى (ﷺ) قال: «الاستثناء فى الآيتين كلتيهما لأهل الجنة» (أى لمن يدخلون الجنة فى النهاية)]، بينما قال الزمخشرى بمذهبه الاعتزالى: [هو استثناء من الخلود فى عذاب النار، ومن الخلود فى نعيم الجنة، وذلك أن أهل النار لا يخلدون فى عذاب النار وحده، بل يعذبون بالزمهرير وبأنواع من العذاب سوى عذاب النار، وكذلك أهل الجنة لهم سوى الجنة ما هو أكبر منها وأجل موقعًا منهم، وهو رضوان الله. ولا يخدعنك قول المجبرة (يقصد أهل السنة) إن المراد بالاستثناء خروج أهل الكبائر من النار بالشفاعة، فإن الاستثناء الثانى (فى الآية التالية) ينادى على تكذيبهم]، وفصَّل الشوكانى أكثر من عشرة أقوال، منها: [ثبت بالأحاديث المتواترة تواترًا يفيد العلم الضرورى بأنه يخرج من النار أهل التوحيد، فكان ذلك مخصصًا لكل عموم]، ثم قال فى جزء الرواية من تفسيره عدة أقوال: [(عن جابر) قال: قال لى رسول الله (ﷺ): «إن شاء الله أن يخرج أُناسًا من الذين شقوا من النار فيدخلهم الجنة فعل»، وقال ابن مسعود: ليأتين عليها (جهنم) زمان تخفق أبوابها. وأخرج الطبرى عن الشعبى: جهنم أسرع الدارين عمرانًا وأسرعهما خرابًا. وقال قتادة: الله أعلم بتثنيته (باستثنائه) على ما وقعت (أى الله أعلم بمراده من الاستثناء]، وقال مخلوف: [نقل ابن عطية أنه على طريق الاستثناء الذى ندب إليه الشرع فى كل كلام، فهو على حد: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧]، وهذا الاستثناء فى معنى الشرط، كأنه قيل: إن شاء ربك. فلا يوصف بمتصل أو منقطع، والنكتة (النقطة) فيه: إرشاد العباد إلى تفويض جميع الأمور إليه جل شأنه، وإعلامهم بأنها منوطة بمشيئته، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لاحق لأحد عليه، ولا يجب عليه شىء]، أما سيد قطب فقال: [علق السياق هذا الاستمرار بمشيئة الله فى كلتا الحالتين (فى هذه الآية والآية التالية لها)، وكل قرار وكل سنة معلقة بمشيئة الله فى النهاية، فمشيئة الله هى التى اقتضت السنة وليست مقيدة بها ولا محصورة فيها، إنما هى طليقة، تبدل هذه السنة حين يشاء الله ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾]، وقال القرضاوى: [إن رحمة الله تسع كل شىء]. أما السعداء ففى الجنة خالدون فيها ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ تعددت أيضا أقوال المفسرين فى هذا الاستثناء، فقال الطبرى: [إن الاستثناء هو مدة مكوثهم فى النار قبل دخول الجنة]،

وقول الزمخشرى واضح فيما سبق، وكذلك قول مخلوف وقطب، وارجع للشرح السابق فى الآية ١٢٨ من سورة الأنعام ﴿عطاء غير مجذوذ﴾ عطاء من رب العالمين غير منقطع ولا مقطوع.

***

﴿فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص (١٠٩) ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم وإنهم لفي شك منه مريب (١١٠)﴾

فلا تكن يا محمد ـ والخطاب لكل المستمعين، فى عصر النبوة وما بعده إلى يوم الدين ـ فى شك من بطلان ما يعبد هؤلاء، ولا من سوء عاقبتهم، فهم لا يكفرون بالحق إلا كما كفر آباؤهم، وسينالون جزاءهم غير منقوص. ثم يخبر الله محمداً (ﷺ) والعالمين ﴿لقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه﴾ فاختلف فيه الذين تلقوه من بنى إسرائيل، ولولا كلمة ربك بتأجيل الحساب النهائى إلى يوم قضائه بينهم ﴿لقضي بينهم﴾ وهم فى شك من كتاب موسى (ﷺ)، أو فى شك من القرآن، أوفى شك من الاثنين.

***

﴿وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير (١١١) فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير (١١٢) ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون (١١٣)﴾

سيوفى الله كلاّ من المؤمنين والمكذبين جزاء أعماله بالعدل؛ لأنه ﴿بما يعملون خبير﴾ فاستقم يا محمد ﴿ومن تاب معك﴾ على التوحيد والعمل بما شرعه الله ﴿ولا تطغوا﴾ وإياكم والتجاوز سواء بالإفراط أو التفريط فى دين الله ﴿إنه بما تعملون بصير﴾ ولا تميلوا ولا تعتمدوا على الذين ظلموا فتطولكم النار، ولن تجدوا لكم أولياء غير الله ينصرونكم.

***

﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين (١١٤) واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين (١١٥)﴾

الأمر موجه إلى الرسول (ﷺ)، وإلى أمته، و﴿طرفي النهار﴾ أى صلاة الفجر وصلاة المغرب ﴿وزلفا من الليل﴾ ساعات من الليل، أو من أوله، وقيل صلاة المغرب وصلاة العشاء، وقصر المعنى على صلاة العشاء يمنع التكرار مع ما قبله، والصلاة تنهى عن الفحشاء

والمنكر، وأكبر من ذلك، ألا وهو ذكر الله، وذلك لأن ﴿الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ وجاء فى الحديث «الصلوات الخمس كفارة لما بينها إذا اجتنبت الكبائر» رواه مسلم، وفى هذا ذكرى يعمل بها الذاكرون ﴿وَاصْبِرْ﴾ يا محمد ومن تبعك على مشاق الدعوة والعمل فى سبيل الله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

* * *

﴿فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِى الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧)﴾

﴿فَلَوْلا﴾ فهلا كان ﴿مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ﴾ من الأمم السابقة ﴿أُوْلُوا بَقِيَّةٍ﴾ أصحاب فضل وخير يسعون فى نهى المفسدين الذين يفسدون فى الأرض. قال الزمخشرى: [ويجوز أن تكون البقية بمعنى البقوى كالتقية بمعنى التقوى، والمعنى: فلو كان منهم أولو مراقبة وخشية من انتقام الله ﴿إِلاَّ قَلِيلاً﴾ استثناء منقطع، معناه: ولكن قليلاً ممن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد، وسائرهم تاركون للنهى]، وقال المراغى: [فهلا وُجد من أولئك الأقوام الذين أهلكناهم بظلمهم وفسادهم فى الأرض جماعة أولو عقل ورأى وصلاح ينهونهم عن الفساد فى الأرض، ولكن كان هناك قليل منبوذون، لا يُقبل نهيهم وأمرهم] ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ فانغمس الظالمون فى الملذات والشهوات فصاروا مجرمين. وما كان الله يهلك القرى إلا إذا كان أهلها ظالمين.

* * *

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩)﴾

تعددت أقوال المفسرين فى هاتين الآيتين، فمنها: لو شاء الله لجعل الناس كلهم على دين واحد، ولكنه لم يشأ ذلك، ومنها: ولو شاء الله لجعل الناس كلهم على دين الإسلام، ولكنه لم يشأ ذلك، ومنها لو شاء الله لجعل الناس كلهم على دين واحد، ومع ذلك ﴿وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ سيظلون مختلفين داخل هذا الدين ﴿إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ بهدايته إلى الدين الحق ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾. قال الزمخشرى: [. . . وأنه (الله) لم يضطرهم إلى الاتفاق على دين الحق، ولكنه مكنهم من الاختيار الذى هو أساس التكليف، فاختار بعضهم الحق وبعضهم الباطل، فاختلفوا ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ لذلك التمكين والاختيار الذى كان عنه الاختلاف؛

خلقهم، ليثيب مختار الحق بحسن اختياره، ويعاقب مختار الباطل بسوء اختياره ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ وهى قوله للملائكة ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ لعلمه بكثرة من يختار الباطل]، وقال المراغى: [لو شاء ربك أيها الرسول الكريم ـ الشديد الحرص على إيمان قومك، الحزين من أجل إعراض أكثرهم عن إجابة دعوتك واتباع هديك ـ لجعل الناس على دين واحد بمقتضى الغريزة والفطرة، لا اختيار لهم فيما يفعلون، فكانوا فى حياتهم الاجتماعية أشبه بالنمل والنحل، وفى حياتهم الروحية أشبه بالملائكة مفطورين على طاعة الله، ولكنه تعالى خلقهم كاسبين لا مُلهَمين، وعاملين بالاختيار لا مجبورين ولا مضطرين. ولا يزالون مختلفين فى شئونهم الدنيوية والدينية، إلا من رحم الله منهم، فإنهم يتفقون على حكم كتابه فيهم، ولمشيئته تعالى فيهم الاختلاف والتفرق فى علومهم ومعارفهم وآرائهم، وما يتبع ذلك من الإرادة والاختيار فى الأعمال ـ خلقهم خلفاء فى الأرض. وقال ابن عباس: خلقهم فريقين، فريقًا يُرحم فلا يختلف (لا يتنازع)، وفريقًا لا يُرحم فيختلف (فيتنازع)، فذلك قوله ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥] وقد سبق فى قضائه وقدره وحكمته النافذة أن من خلقه مَن يستحق الجنة، ومنهم من يستحق النار، وأن الجنة والنار لابد أن يملآ من عالمى الجَن والإنس الذين لا يهتدون بما أرسل به رسله وبما أنزل من كتبه]، وسياق الآيتين السابقتين يبين أن المقصود بمن يملأون جهنم من الجنة والناس أجمعين؛ هم المفسدون والظالمون والمجرمون، وقال البيضاوى: [عصاتهما]، وقال سيد قطب: [لو شاء الله لخلق الناس كلهم على نسق واحد، وباستعداد واحد.. نسخًا مكرورة لا تفاوت بينها ولا تنويع فيها. وهذه ليست طبيعة هذه الحياة المقدرة على هذه الأرض. وليست طبيعة هذا المخلوق البشرى الذى استخلفه الله فى الأرض.

ولقد شاء الله أن تتنوع استعدادات هذا المخلوق واتجاهاته. وأن يوهب القدرة على حرية الاتجاه. وأن يختار هو طريقه، ويحمل تبعة الاختيار. ويجازى على اختياره للهدى أو للضلال.. هكذا اقتضت سنة الله وجرت مشيئته.

شاء الله ألا يكون الناس أمة واحدة. فكان من مقتضى هذا أن يكونوا مختلفين. إلا الذين أدركتهم رحمة الله ـ الذين اهتدوا إلى الحق ـ والحق لا يتعدد ـ فاتفقوا عليه. وهذا لا ينفى أنهم مختلفون مع أهل الضلال.

ومن المقابل الذى ذكره النص:

«وتمت كلمة ربك: لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين».

يفهم أن الذين التقوا على الحق وأدركتهم رحمة الله لهم مصير آخر هو الجنة، تمتلىء بهم كما تمتلئ جهنم بالضالين المختلفين مع أهل الحق، والمختلفين فيما بينهم على صنوف الباطل ومناهجه الكثيرة!].

* * *

﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٢٢)﴾

كل هذه العبر إنما نقصها عليك يا محمد ليقوى قلبك وتثبت أقدامك، فإن ما يصيبك قد أصاب جميع الرسل من قبلك ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ﴾ السور من ربك الحق والمواعظ البالغة ليتذكر ويعتبر جميع المؤمنين، أما الذين يصرون على الرفض فقل لهم: ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ اعملوا فى سبيل أوضاعكم فى الدنيا ﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾ أما نحن فنتمسك بحبل الله المتين، ونعض بالنواجذ على التوحيد والإيمان الخالص لله والعمل بمقتضاه ﴿وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾.

* * *

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣)﴾

الله وحده هو عالم الغيب فى السموات والأرض، وإليه وحده يرجع أمر الخلق والكون كله، لا شريك له، فاعبده يا محمد ومن آمن معك ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ وفوض الأمر إليه ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) ﴾ .

﴿ الر ﴾ ، ارجع لشرح الحروف المُقَطَّعة فى بداية سورة البقرة .

إن الذى نتلوه عليك هو من آيات القرآن الواضح فى هدى الناس ، ولقد أنزلناه باللغة العربية(١) حتى تعقلوا معانيه .

* * *

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي

(*) إلاّ الآيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٧ فمدنية .

(١) من مميزات اللغة العربية :

١ - الدقة والتفصيل : مذكر ومؤنث ـ مفرد ومثنى وجمع ـ تغير شكل الفعل حسب التذكير والتأنيث ، والزمن ، والعدد .

٢ - ثرية فى الاشتقاقات : فعلى سبيل المثال «رحم» لها تسعة عشر مشتقًا .

٣ - ثرية فى المترادفات : فعلى سبيل المثال هناك مائة وثلاثون مرادفًا للأسد .

٤ - القواعد : لها قواعد تفصيلية شاملة و دقيقة فى النحو والصرف .

٥ - التشكيل : يُساعد على فهم المعنى بتوضيح الفاعل والمفعول ، ومعنى الكلمة .

٦ - مثّل كل ما سبق أساسًا قويًا متينًا ، جعل اللغة فى غنى عن تغيير قواعدها فى النحو والصرف ، وفى الكلمات .

٧ - الإيجاز : فيمكن صياغة الجمل والمعانى فى كلمات قليلة .

سَاجِدِينَ (٤) قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٥) ﴾

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ يا محمد ﴿ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ أبدعها أسلوبًا، وأصدقها قولاً، وأجمعها حكمًا وعبرًا ﴿ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ بما أنزلنا إليك فى هذا القرآن ﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ عن الدين الصحيح ـ كما جاء فى سورة الشورى ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ [الشورى: ٥٢] ـ ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ ﴾ قال يوسف لأبيه يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ وتلك رؤيا فى حلم، فأجابه أبوه ﴿ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ لا تخبر إخوتك بهذه الرؤيا فتأخذهم الغيرة منك ويمكرون بك، فالشيطان عدو ظاهر العداوة، لا نأمن شروره حتى من إخوتك.

***

﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦) ﴾

تبين لك هذه الرؤيا الحسنة أن الله يصطفيك، ويعلمك من تفسير أحاديث الناس عن الرؤى، وقال الزمخشرى: [ويجوز أن يراد بتأويل الأحاديث معانى كتب الله وسنن الأنبياء، وما غمض واشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها] ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب، كما أتمها على أجدادك من قبل إبراهيم (عليه السلام) جدك الأكبر، واسحق (عليه السلام) ابنه، إن ربك عليم حكيم.

***

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ (٧) إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (١٠) ﴾

إن فى قصة يوسف (عليه السلام) وإخوته لعظات وعبرًا للسائلين، لقد اجتمع إخوة يوسف على الغيرة منه، وقالوا لأنفسهم إن أباهم أكثر حبًا له ولأخيه منهم جميعًا، وهو بهذا فى ضلال

مبين. ثم تآمروا عليه، فقالوا: اقتلوا يوسف أو انفوه إلى أرض بعيدة لا يعرف رجوعًا منها، حتى يخلص لكم حب أبيكم، وتصبحوا بعد هذه الفعلة قومًا صالحين ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾ قال أحد الإخوة: لا تقتلوه، وإنما ألقوه في قعر بئر يغيبُ فيه حتى تمر قافلة تسعى إلى الماء من البئر فتعثر عليه وتأخذه معها ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ إن كنتم مصرين على التخلص منه.

* * *

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ (١٤)﴾

قالوا لأبيهم ﴿مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا﴾ لماذا لا تأمنا على يوسف رغم أننا ﴿لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ مخلصون ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ يأكل ويمرح ويلعب، فتحجج يعقوب (عليه السلام) بخوفه من أن يغفل أبناؤه عن يوسف فيأكله الذئب، بعد أن بين لهم حزنه على ذهابه معهم، فأجابوه مستنكرين: كيف يأكله الذئب من بينهم وهم جماعة كبيرة؟! فإذا حدث فهم ﴿إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾.

* * *

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٥) وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨)﴾

فلما ذهب الإخوة بيوسف وقرروا جميعًا أن يلقوه في ظلام البئر، أوحى الله ليوسف أنه سيجيء الوقت الذي تنبئ فيه إخوتك بمؤامرتهم عليك. ثم عاد الإخوة بعد تنفيذ جريمتهم إلى أبيهم متظاهرين بالحزن والبكاء لفقدهم يوسف، زاعمين أن الذئب أكله عندما كانوا يستبقون، وجاءوا بدليل صنعوه، قميص يوسف وعليه دم زائف، ولكن أباهم لم يصدقهم وقال كلمته المشهورة ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

* * *

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠) وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) ﴾

ثم مرت بالبئر قافلة أرسلت من يأتى لهم بالماء منه، فصعد يوسف على الحبل، فاستبشروا به، يبيعونه عبداً، وتم لهم ذلك بدراهم قليلة إذا أنهم استقلوه، واشتراه العزيز، أحد كبار المسئولين فى مصر، وقال لامرأته: أكرميه، عسى أن ينفعنا، أو نجعله ولداً لنا. وهكذا مكن الله ليوسف بأن جعله محل اهتمام بيت أحد مسئولى مصر، وعلمه تأويل الأحاديث ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

***

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢) وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) ﴾

واستمرت رحمة الله وبركاته على يوسف (ﷺ)، حتى إذا بلغ سن كمال القوة العقلية والبدنية، آتاه الله الحكمة والعلم، جزاءً على إحسانه العبادة ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا ﴾ أغرت امرأة العزيز يوسف، وأغلقت الأبواب ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ تهيأت لك، أو هلم إلى، فأجابها: أعوذ بالله وأستجير به أن أخون زوجك رب البيت الذى ﴿ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ أكرم نزولى عنده، ولا يفلح من يأتى مثل هذا الظلم ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾ نوت على مواقعته ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ تعددت أقوال المفسرين فى ذلك، فمن قائل هم بدفعها عنه، ولكن تكملة الآية ﴿ لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ لا تساعد على ذلك التأويل، وقال آخر هم بمواقعتها، ولكن ﴿ رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ فامتنع، ولم تبين الآيات ذلك البرهان، ولا جاء فيه حديث صحيح، فهو من أمور الغيب التى لا يجوز لأحد أن يؤكد فيها قولاً، ثم بين آخر الآية أن الله تولاه برحمته وفضله ومنعه من الانزلاق فى ذلك الإثم؛ لأنه قد أخلص فى عبادته. وجاء فى الحديث أنه

من بين السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله : «ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال : إني أخاف الله» رواه البخارى ومسلم .

* * *

﴿ واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدا الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم (٢٥) قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين (٢٦) وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين (٢٧) فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم (٢٨) يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين (٢٩) ﴾

فر يوسف إلى الباب للهروب، وأسرعت وراءه وأمسكت قميصه من الخلف، فتمزق القميص في يدها، وعندما فوجئت بزوجها قالت على الفور فى افتراء ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءا ﴾؟ ماذا ستفعل فيمن أراد بأهلك اغتصابًا؟ لا أرى جزاءً عادلاً إلا إلقاءه فى السجن أو إنزال عذاب أليم به . قال يوسف ﴿ هي راودتني عن نفسي ﴾ هى التى دعتنى وأغرتنى، وراحا يتخاصمان، وكان مع عزيز مصر أحد أقارب امرأته فحكم حكمًا عادلاً ذكيًا ﴿ إن كان قميصه قد من قبل ﴾ تمزق من الأمام، فهذا دليل على هجومه للاعتداء عليها، فهى عندئذ صادقة وهو كاذب ﴿ وإن كان قميصه قد من دبر ﴾ وإن كان تمزق من الخلف، فهذا دليل على فراره منها، عندئذ تكون هى كاذبة وهو صادق، فلما رأى العزيز أن القميص ممزق من الخلف نظر إليها آسفًا وقال : ﴿ إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم ﴾!! ثم نظر إلى يوسف وناشده أن يُعرض ويَضرب عن هذا الحدث صفحًا ولا يذكره لأحد، ثم قال لزوجته : ﴿ واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾ .

* * *

﴿ وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها في ضلال مبين (٣٠) فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم (٣١) قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين (٣٢) ﴾

عرفت بعض نسوة المدينة مراودة زوجة العزيز فتاها عن نفسه ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ يا للعار! زوجة العزيز قد فُتنت ومَلَكَ حب يوسف شغاف قلبها، لقد ضلت وفقدت صوابها، فلما سمعت ﴿ بِمَكْرِهِنَّ ﴾ تظهر الآية أنهن أردن بقولهن ذلك أمرًا، وليس مجرد إنكار فعلها، وعرفت ذلك فدعتهن ﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً ﴾ ورتبت لهن مجالس ذات مساند وطعامًا ﴿ وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾ لتناول الطعام، وقالت ليوسف: ﴿ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ﴾ فلما وقع بصرهن على يوسف هالهن حسنه و﴿ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ أكبرن هيئته ووقاره وجماله، وجرحن أيديهن من ذهولهن ﴿ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا ﴾ وقلن ما هذا بشرًا، بل هو ملك، وما كان له أن يفعل فاحشة. . . وعندما رأت امرأة العزيز ما أصابهن قالت: هذا الذي تعرضت بسببه إلى الملام، ولقد راودته عن نفسه ولكنه تأبى وامتنع، واعتصم بربه، وإن لم يستجبْ لي فسألقي به في السجن ﴿ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾.

❊ ❊ ❊

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ (٣٥) ﴾

يظهر من السياق أن المرأة لم تتوقف عن مراودة يوسف(ﷺ) وهددته بالسجن إن لم يطعها، وربما كان معها من يعاونها على ذلك، فقال ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ وتتجسد قوة الإيمان بالله وحبه، وتقوى الله وطهارة العمل وعفته في قول يوسف، ثم يدعو الله ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ إني أبرأ من حولي وقوتي إلى حولك وقوتك، فأعنِّي على نفسي، ولا تتركني لنفسي غمضة عين، حتى لا أميل إليهن، وأصبح من الجاهلين، فاستجاب الله لاستغاثته فعصمه وقواه وصرف عنه كيد النساء ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لدعوة المضطر ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بنية المستغيث. لكن برغم كل هذه الآيات البينات، رأت عصبة الحكم أن تسجن يوسف حتى يحين شيء ما.

❊ ❊ ❊

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ

بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٣٨) ﴾

استمسك نبى الله يوسف (عليه السلام) بعقيدته، والتزم الدعوة إليها فى مختلف الأحوال، وها هو يَعبُر بها كيد النساء وغوايتهن، وبنفس هذه الروح عاش فى السجن ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ قيل إنه كان يعمل فى قصر الملك كساق للخمر ﴿ وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ ﴾ وقيل إنه كان يعمل خبازًا فى قصر الملك. توسم الفتيان فى يوسف الفراسة والنورانية، وشاهداه يحسن التعامل مع الآخرين فى السجن، فطلبا منه تفسير ما رأياه ﴿ قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾ قيل معناه لا يأتيكما طعام فى المنام إلا أولته لكما فى اليقظة قبل أن يأتيكما، وقيل بل هو إنباؤه لهما بما يأتيهما من طعام قبل أن يأتيهما، ولم يترك يوسف الفرصة تمر دون أن يدعو إلى الله، فقد أرجع العلم بما سيحدث إلى تفضل الله عليه؛ لأنه ترك ملةَ الكفر التى عليها قومه الذين ﴿ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ واستمسك بإسلام الوجه لله، ملة الإسلام التى هى ملة إبراهيم أبى الأنبياء وإسحاق جده ويعقوب أبيه، عليهم الصلاة والسلام ﴿ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ فلا يصح أن نجعل لله شريكًا، هذا هو الدين الخالص ﴿ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴾.

***

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٤٠) ﴾

وهكذا تقوم الدعوة بالتى هى أحسن ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ ﴾ اعقلوا وتأملوا، أأرباب متعددون ﴿ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ أم رب العالمين الواحد الأحد القاهر فوق كل الخلق؟ إذا تعددت الآلهة، فمن تعبدون؟ والتعدد يعنى الاختلاف، فكيف تأمنون غضب وعقاب من لا تتبعون من الآلهة الأخرى، إن كان هناك آلهة أخرى؟ أليس خيرلكم أن تتبعوا إلهًا واحدًا من أن تتبعوا آلهة تتنازعكم؟ إن الآلهة التى تعبدونها وتطلقون عليها أسماء من عندكم ومن عند آبائكم ﴿ مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ لم ينزل الله حجة أو برهانًا يدل

على صحتها ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ ﴾ إن الأمر كله لله وحده ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ هذا هو الذى يقوم عليه صلاح الدنيا، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

* * *

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ من رَّأْسِه قُضِىَ الأَمْرُ الَّذِى فِيه تَسْتَفْتِيَانِ (٤١) وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِى السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢) ﴾

أوَّل يوسف لهما بوضوح واختصار ﴿ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُ خَمْراً ﴾ سيفرج عنه ويعود إلى خدمة الملك كساق مرة أخرى ﴿ وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ من رَّأْسِه ﴾ أما الثانى فيُصلب ويترك مصلوبًا، فتقع عليه الطير وتأكل من رأسه ﴿ قُضِىَ الأَمْرُ الَّذِى فِيه تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ هذا قضاء الله فيما تسألان عنه. وقال يوسف لمن ظن أنه ناجٍ وعائد إلى خدمة الملك ﴿ اذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ اذكر قصتى عند الملك لعله يتذكرنى ويفرج عنى ﴿ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ قال محمد الغزالى: [إن ساقى الملك غمرته أضواء القصر فنسى السجن وأيامه ورفاقه، ونسى الرجل المحسن البرىء المحبوس ظلمًا!] ﴿ فَلَبِثَ ﴾ يوسف فى سجنه بضع سنين، والبضع ما بين الثلاث إلى تسع.

* * *

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّى أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَاىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ (٤٤) ﴾

رأى ملك مصر فى نومه ﴿ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾ سمى القرآن حاكم مصر أيام موسى (ﷺ) «فرعون»، وسماه الملك فى أيام يوسف لأنه كان من الهكسوس الغزاة ولم يكن فرعون مصريّا. رأى الملك سبع بقرات عجاف، أى هزيلة، تأكل سبع بقرات سمان ورأى ﴿ سَبْعَ سُنْبُلاَتٍ خُضْرٍ ﴾ سبع سنبلات مثمرة ﴿ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ﴾ وأخر جافات غير مثمرات، فنادى على ﴿ الْمَلأُ ﴾ بطانته من الكبراء والعلماء والحكماء، وطلب منهم تفسير الرؤيا ﴿ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ إن كنتم تعلمون تأويلها. فاحتاروا فى أمرهم، وأخيرًا قالوا: ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ ﴾ تلك من أخلاط الأحلام ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ ﴾.

* * *

﴿ وَقَالَ الَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّى أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩) ﴾

تذكر بعد مدة طويلة ساقى الملك الذى كان صاحبًا ليوسف (ﷺ) فى السجن، وقال: أنا أنبئكم بتأويل الرؤيا وآتيكم بالخبر اليقين؛ أرسلونى إلى السجن، وهناك قال ليوسف: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ ﴾ فقد صدق تأويله لحلمه وحلم صاحبه ﴿ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ﴾ حتى أعود إلى الناس فأخبرهم. قال يوسف: ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ﴾ دائبين كل عام كعادتكم، بجد واجتهاد ﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ ﴾ وعند الحصاد؛ اتركوه فى سنابله حتى لا يأكله السوس[1]، أى لا تخزنوه فى الصوامع ولا تحصدوا إلا ما يكفى لطعامكم ﴿ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ ﴾ يأتى بعد ذلك سبع سنين شديدة عليكم بقلة محصولها، تأكلون فيها مما تركتم فى سنابله حتى تكاد تلك السنين تأكله ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ مما تدخرون، أما العام الثامن فهو ﴿ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ ﴾ الغيث هو المطر الذى يبعث الحياة فى النبات والحيوان والإنسان، ولذلك تستخدم الكلمة فى كثير من الأمور التى تبعث الحياة وتنقذ أو تخلص من الموت والأضرار الشديدة، وتحتمل الكلمة هنا المطر، وتحتمل ماء النيل وفيضانه، الذى مصدره أيضًا هو الأمطار فى منابعه الإفريقية ﴿ يَعْصِرُونَ ﴾ تعددت أقوال المفسرين لتعدد استخدامات كلمة

(١) جاء فى *تفسير الآيات الكونية فى القرآن* للدكتور زغلول النجار: [ولقد قام الأستاذ الدكتور عبد المجيد بلعابد (من جامعة وجدة بالمغرب العربى) بتجربة عملية للتأكد من ذلك، فترك بذور القمح فى سنابلها لمدة عامين تحت ظروف عادية لم يراع فيها أية شروط من شروط تخزين الحبوب، وجرد بعض البذور من سنابلها وتركها أيضًا تحت الظروف نفسها وللمدة الزمنية نفسها، فلاحظ أن الحبوب فى السنابل لم يطرأ عليها أى تغيير لا فى محتواها من المواد الغذائية ولا فى قدرتها على الإنبات سوى فقدها لجزء من محتواها المائى مما جعلها أكثر جفافًا وأصلح للحفظ وللإنبات لأن وجود الماء يسهل من تعفن القمح، خاصة أن نسبة الماء فى بذوره تصل إلى ٢٠,٣٪. فى الوقت نفسه، لاحظ الباحث أن حبوب القمح التى جردت من سنابلها فقدت ٢٠٪ من محتواها من المواد البروتينية بعد سنة من خزنها، وفقدت ٣٢٪ من هذا المحتوى بعد سنتين، وكذلك فقدت نسبة كبيرة من قدرتها على الإنبات والنمو والإثمار. وبذلك ثبت بالتجربة أن أفضل طريقة لتخزين المحاصيل النباتية التى تنتج فى سنابل كالقمح والشعير والأرز هو حفظها فى سنابلها التى خلقها الله ـ تعالى ـ فيها].

يعصرون، فمنها عصر العنب والسمسم والزيتون، ومنها عصر ضروع الماشية لحلبها، ومنها أيضًا يمطرون، وكلها تجتمع على الخصب والرخاء.

* * *

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) ﴾

لما سمع الملك تفسير الرؤيا وانشرح صدره لها، طلب من أوَّلها قائلاً: ﴿ ائْتُونِي بِهِ ﴾ فطار الرسول إلى يوسف (ﷺ) في سجنه وأخبره بالبشرى، فأصر يوسف أن تظهر براءته أولاً حتى يردَّ له اعتباره، فقال للرسول: ﴿ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ إلى الملك ﴿ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ فهو لم يقص ما حدث ليثبت براءته، ولكنه طلب من الملك أن يبحث بنفسه حقيقة الأمر، فجمع الملك تلك النسوة، ومن بينهن امرأة العزيز، وسألهن: ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ﴾ ما الذي ألمّ بكن حتى راودتن يوسف عن نفسه؟ وهذا السؤال يبين أنه عرف حقيقة الأمر، أو أن جزءًا من الحوار غير مذكور، وخلاصته أن الملك عرف حقيقة الأمر فوجه إليهن السؤال، فأجبنه: ﴿ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ معاذ الله أن نشهد بغير الحق ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾ عندئذ أنطق الله لسان امرأة العزيز بالاعتراف فاندفعت قائلة: ﴿ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾ وضح الحق ﴿ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ قال يوسف بعد هذه الشهادة: ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ لم أخن العزيز ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾.

* * *